بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ- ؟؟؟.

الشرح

كتب الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ- هذه الرسالة للتمييز بين الشرك والكفر، والتوحيد، وتمييز المسلم من غيره من المشركين، والمؤمن الموحد من الكافر، وأدلتها مأخوذة من الكتاب والسنة.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (أسأل الله الكريم ...) الخ، وهذا من نُصْح هذا الإمام أنه يعلمك ويدعو لك، وفيه توسل إلىٰ الله بعظمته وبربوبيته للعرش الذي هو أعلىٰ المخلوقات، وباسمه الكريم.

توسل إلىٰ الله تعالىٰ بربوبيته وصفاته، وأن يتولاك يا طالب العلم في الدنيا والآخرة، وأن يجعلك مباركاً أينما كنت، ويوفقك لِما فيه صلاح دينك وآخرتك.

والمبارك: هو الذي يتعدىٰ نفعه للآخرين؛ من إطعام جائعهم، وتحمل أثقالهم وعونهم.

وقوله: (وأن يجعلك مباركًا أينما كنت)؛ أي: في عملك، وفي كل شيء؛ في نفع الناس، وفي الجاه والشفاعة، وغيرها.

وقوله: (وأن يجعلك ممن إذا أُعطىٰ شكر، وإذا ابتُلي صبر، وإذا أذنب استغفر).

هذه علامات السعادة؛ إذا أصابته نعمة شكرها، وإذا أصابته بلية صبر، وإذا أذنب يتوب، ويستغفر.

والإنسان يتقلب بين هذه الأحوال الثلاثة؛ فقد يكون في نعمة في ماله، أو بدنه، أو أهله، فإن عليه أن يشكر الله عليها بأن يعترف لله تعالىٰ بهذه النعمة بقلبه، ويشكرها ويثني بلسانه علىٰ الله، ويصرفها في مرضاة الله بجوارحه، وقد يكون في بلية ومصيبة، فعليه أن يصبر، ولا يجزع ولا يتسخط، وقد يكون في معصية، فعليه أن يقلع ويندم، ويتوب ويستغفر.

وتفصيل الحالات الثلاث:

الحالة الأولىٰ: أن يكون في نعمة فعليه أن يشكرها.

والشكر بثلاثة أمور: باللسان. وبالقلب. وبالجوارح.

قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

الحالة الثانية: أن يكون الإنسان مبتلىٰ بمصيبة بنفسه بمرض أو فقر، أو في ولده، أو أهله، فيكون صابرًا ولا يتجزع، ولا يتسخط، بأن يحبس لسانه عن التشكي، ويكف جوارحه عما يغضب الله -ﷻ- ويحبس نفسه عن الجزع، فلا يلطم خدًّا، ولا يشق جيبًا، كما قال النبي ﷺ لآل أبي سلمة لما توفي أبو سلمة: «لا تقولوا إلا خيرًا، فإن الملائكة يؤمنون علىٰ ما تقولون»[1].

الحالة الثالثة: أن يكون الإنسان مذنبًا، فعليه الإقلاع عن الذنب، ثم الندم علىٰ ما مضىٰ، ثم يعزم علىٰ عدم العودة والاستغفار، وأن يرد المظلمة إلىٰ أهلها.

فالإنسان دائرٌ بين نعمة فيشكر، أو مصيبة فيصبر، أو ذنب فيستغفر، فإذا كان الإنسان يشكر الله علىٰ النعمة، ويصبر علىٰ المصيبة، ويتوب ويستغفر إذا أذنب، فهذه الثلاث عنوان السعادة.

قوله: (اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم ...) الخ.

هذا أمر من باب الانتباه، والعلم هو: اليقين، وضده الشك، وأما مَن يعلم ولا بعمل فهذا غاوٍ، وأما من يعمل بدون علم فهذا ظالم، والراشد من يعمل بعلم وبصيرة.

---

(١) أخرجه مسلم (٩١٩) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

العلم هو اليقين من غير شك، أي: (تيقن واجزم) هذا معنىٰ العلم، وهو حكم الذهن الجازم.

الحنيفية: ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وأن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين، أي: العبادة الدين يطلق علىٰ العبادة.

ويطلق الدين علىٰ الجزاء والحساب.

والحنيفية هي التي أمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ أن يتبعها بقوله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣].

ومعناها (لا إله إلا الله)، والحنيفية هي التوحيد، وهي أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين، وسميت حنيفية من الحنف، وهو الميل؛ لكونها مائلة عن الشرك، وتسمىٰ الإسلام، وتسمىٰ الملة العوجاء؛ لأنها مائلة عن الشرك، وهي مستقيمة في نفسها.

ومعناها: أن تتقرب إلىٰ الله بالعبادات، وتوجه جميع إراداتك لله مع الإخلاص.

بمعنىٰ تخص الله بهذه العبادة وتنفيها عن غيره.

فتعبد الله بالدعاء، ولا تدعو غيره، وتعبد الله بالذبح، ولا تذبح لغيره، وتعبد الله بالسجود، ولا تسجد لغيره.

فلابد من عبادة الله وحده مع الإخلاص، وأمر الله جميع العباد بعبادته، وخلقهم لها؛ الجن والإنس كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قول المؤلف: (فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته فاعلم أن العبادة لا تسمىٰ عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمىٰ صلاة إلا مع الطهارة).

الكفر بالطاغوت هو البراءة من كل عبادة معبود سوىٰ الله، البراءة منها ونفيها وبغضها وإنكارها ومعاداتها وأهلها.

فلو صلىٰ إنسان فلا يسمىٰ عابدًا لله إلا إذا أخلص لله العبادة، فقد يصلىٰ لله ويصلي لغيره، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١].

كما أن الصلاة لا تسمىٰ صلاة إلا مع الطهارة، فإذا لم يتطهر لم يُعدّ مصليًا، وكالحدث

إذا خالط الطهارة لا يسمىٰ طهارة، وكالشرك إذا دخل العبادة أفسدها، فإذا عرفت أن العبادة إذا دخلها الشرك بطلت وصار صاحبها من أهل النار، ولابد أن تميز التوحيد من الشرك، والعبادة الصحيحة من العبادة الفاسدة.

- هذه القواعد من القرآن من الكتاب والسنة.

القاعدة الأولى

(أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون بأن الله تعالىٰ هو الخالق...).

الشرح

أن تعلم وتتيقن أن الكفار الذين في زمن الرسول ﷺ وكفار قريش وغيرهم؛ قاتلهم رسول الله ﷺ واستحل دماءهم، وأموالهم، وكانوا مقرين بتوحيد الربوبية، فهم يقرون أن الله هو الخالق الرازق المدبر، وهذا التوحيد هو توحيد الربوبية، ولم يدخلهم في الإسلام، ولم يخرجهم من الشرك؛ بل استحل النبي دماءهم وأموالهم؛ لأنهم أشركوا في توحيد العبادة (الألوهية)، ولا يكفي الإقرار بتوحيد الربوبية، بل لابد من الإقرار معه بتوحيد الألوهية.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

قل (يا محمد) لهؤلاء الكافرين والمشركين: مَن الذي يرزقكم؟ فسيقولون: الله.

والمؤلف اقتصر علىٰ آية، والآيات كثيرة منها:

قوله تعالىٰ: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦١] .

ولم ينفعهم هذا الإقرار بالربوبية وحده، بل لابد من الإقرار بالتوحيدين: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية.

ومن أقر بأحدهما لا يُعدّ موحدًا، إلا إذا أقر بتوحيد الربوبية والألوهية معًا.

القاعدة الثانية

(أنهم يقولون: ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة).

الشرح

إن الكفار أحل الله دماءهم ورسُوله، وقاتلهم لما عبدوا الأصنام والأشجار، والأحجار ما يعبدونها لأنها تنفع وتضر، بل يعتقدون أن الذي ينفع ويضر هو الله تعالىٰ، لكن يقولون: ما توجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة فقط. الذين يعبدون اللات والعزىٰ والملائكة لا يعتقدون أنهم يضرون وينفعون، بل يعتقدون أن الذي ينفع ويضر هو الله تعالىٰ، ولكن يقولون ندعو الأشجار، والأحجار، والصالحين لأجل القربة والشفاعة، لأجل أنهم يقربوننا إلىٰ الله تعالىٰ؛ ويشفعون لنا عند الله. فيدعون الأنبياء والملائكة الصالحين، يقولون :هم أقرب منا لقضاء حوائجنا عند الله، ويشفعون لنا عند الله تعالىٰ، وإن الأشجار والأحجار تسبح الله

تعالىٰ، فهي أقرب منا إلىٰ الله، وأما نحن فعلينا ذنوب، ونحن الآن ندعو الصالحين، وندعو الأولياء والأحجار، لأجل القربة والشفاعة فقط، لا لأجل أنها تنفع وتضر، ولا لأن بيدها شيئًا، فإن الذي ينفع ويضر هو الله تعالىٰ، والذي بيده الأمور هو الله، لكن ندعوها ونتوسل بها إلىٰ الله حتىٰ تنقل حوائجنا إلىٰ الله تعالىٰ، وتشفع لنا عند الله تعالىٰ.

ومع هذا صاروا مشركين (وهذا القول هو الشرك بعينه) لا يشترط في الشرك أن يعتقد الإنسان أن هذه الأشجار والأحجار تنفع وتضر؛ حتىٰ وإن اعتقد أنها لا تنفع ولا تضر؛ فدعاؤها من دون الله شرك.

والدليل علىٰ أنهم يقصدون القربة والشفاعة قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وهم في هذا القول كاذبون كافرون، فكذَّبهم وكفرهم الله بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣].

ودليل الشفاعة قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨].

الشفاعة قسمان: شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة:

١- شفاعة باطلة منفية: وهي التي تطلب من دون الله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]. وقال تعالىٰ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

مثل: طلب المشركين الشفاعة من معبودهم من غير الله، مثل قولهم: يا رسول الله، اشفع لي، يا علي، يا حسين، يا بدوي، اشفع لي، والمشرك ليس له شفاعة؛ لأنه طلب من غير الله.

٢- شفاعة مثبتة: وهي التي تُطلب من الله -ﷻ- كأن يقول الداعي: يا رب شفع فيَّ نبيك، **ولها شرطان:**

أ- إذن الله للشافع أن يشفع؛ حتىٰ نبينا لابد في الشفاعة أن يؤذن له.

ب- رضا الله عن المشفوع له، لابد أن يرضىٰ الله عنه، ولابد أن يكون موحدًا، ولأن الله يرضىٰ إلا عن الموحد، وأما المشرك فلا يشفع له.

قال تعالىٰ: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦].

القاعدة الثالثة

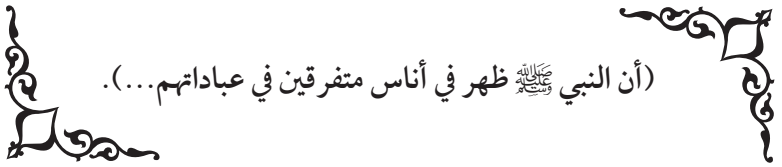

الشرح

النبي ﷺ بعثه الله تعالىٰ، وظهر في أناس من المشركين لهم عبادات متنوعة؛ منهم من يعبد الشمس، ومنهم من يعبد القمر، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأحجار والأشجار، ومنهم من يعبد الصالحين، والأولياء، والأنبياء، كفرَّهم رسول الله ﷺ، ولم يفرق بينهم وقاتلهم.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾ [الانفال: ٣٩] .

الفتنة هي: الشرك، أي: قاتلوهم حتىٰ يزول الشرك، ويأتي التوحيد.

وهذه القاعدة هي أن كل من عَبدَ غير الله تعالىٰ فهو مشرك، وأنه شرك.

ثم ذكر المؤلف الأدلة: فدليل من يعبد الشمس، والقمر قوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧].

ودليل الصالحين: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾[الإسراء: ٥٦].

أي: لا يستطيعون تحويله من حال، ولا إزالته.

وقال تعالىٰ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ ﴾ [الإسراء: ٥٧].

قيل: نزلت في أناس من الجن أسلموا كان يدعوهم ناس من الإنس، ولم يعلموا بإسلامهم، والوسيلة، أي: القربة يطلبون إلىٰ الله القربة بطاعته.

ودليل الملائكة قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾[سبأ: ٤٠].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ ﴾[آل عمران: ٨٠].

ودليل الأنبياء: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ ﴾[المائدة: ١١٦].

ودليل من يعبد الأشجار والأحجار قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾[النجم: ١٩-٢٠].

وهذه الثلاث أكبر الأصنام عند المشركين والعرب.

فاللات: لأهل ثقيف بالطائف، واللات اسم رجل كان يلت السَّويق وهو الحبّ للحُجاج، ولما مات عكفوا علىٰ قبره، وقيل: اسم لصخرة، بتخفيف اللام، وأما بالتشديد باسم الرجل.

العزىٰ: شجر لقريش ومن حولهم.

مناة: بنية لأهل المدينة ومن حولهم.

والأصنام كثيرة عند العرب؛ بل كل شخص له صنم؛ حتىٰ في البيت، ويجمعون الأحجار، أو التراب، أو التمر ويعبدونها.

أما حديث أبي واقد الليثي -رضي الله عنه- فقوله: حدثاء عهد بكفر: أي: أسلمنا حديثًا وقريبٌ عهدنا بالشرك، ولم يتمكن الإيمان في القلب؛ وذلك في غزوة حنين، وقد وقعت بعد فتح مكة، وهذا اعتذار من الصحابي، وغزا رسول ﷺ بعد فتح مكة هوازن في حُنين، وطلب الصحابة الحُدثاء عهد بالإسلام أبا واقد، ومن معه، ولما مروا بالمشركين وهم يعكفون علىٰ شجرة، ويعلقون بها أسلحتهم؛ أن يجعل لهم شجرة مثلها يتبركون بها، ويعلقون بها أسلحتهم، وهذا شرك.

فدل علىٰ أن الإنسان إذا طلب الشرك عن جهل، ثم زُجر، وانتهىٰ عنه فإنه لا يكون مشركاً، فتعجب رسول الله ﷺ من قولهم وقال: «الله أكبر إنها السنن» -أي: الطرق- أي: أنهم سلكوا مسلك المشركين الأولين بني إسرائيل اليهود مع موسىٰ -عليه السلام- حينما طلبوا أن يجعل لهم إلهًا، وأما الصحابة فطلبوا شجرة يتبركون بها.

والطلب يختلف، ولكن العبرة بالحقائق والمعاني.

ففيه أن الإنسان إذا طلب الشرك عن جهل، وزجر وانتهىٰ لا يقع في الشرك.

القاعدة الرابعة

(أن مشركي زماننا أغلظ شركًا من الأولين...) الخ.

الشرح

أي: أن تعلم أن مشركي زماننا أعظم شركًا، أي: أن المشركين المتأخرين أغلظ شركًا، وأعظم وأشد.

سؤال: هل الشرك فيه أعظم وأغلظ؟

الجواب: نعم، كله شرك، لكن الأولين شركهم أخف، والمتأخرين أشد وأغلظ، كما أن الموحدين يتفاوتون في الإيمان والتوحيد، فمن يصد عن دين الله فشركه أعظم، وعذابه أغلظ وأقبح، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

وبيَّن ذلك المؤلف -رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ-: أن الأولين يشركون أحيانًا، ويوحدون أحيانًا يشركون في وقت الرخاء، والسعة، والراحة، ويوحدون في وقت الشدة والضيق، فدل علىٰ أنهم أخف شركًا ممثلًا.

إذا ركبوا البحر وحَّدوا وقالوا: يا ألله! وإذا نزلوا البر أشركوا، وصاروا يعبدون اللات والعزىٰ.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

فصار شرك الأولين أخف وأسهل، وأما شرك المتأخرين فهو في الرجاء، والشدة؛ بل إنهم يزيدون في الشدة تعلقًا بمعبوداتهم: يا علي! يا علي! يا حسين! يا حسين!

- وهناك فرق آخر بين شرك الأولين والآخرين:

أن الأولين يعبدون إما نبيًّا، أو صالحًا، أو شجرًا، أو حجرًا يسبح الله.

وأما المتأخرون فزادوا عليهم فصاروا يعبدون كفارًا أو فساقًا.

فالذي يعبد الفاسق أو الكافر أشد وأغلظ ممن يعبد الأنبياء والصالحين.

فصار شرك المتأخرين أغلظ من جهتين:

أ- أن المشركين الأولين (الأوائل) يوحدون الله عند الشدة، ويشركون في الرخاء، وأما المشركون المتأخرون فشركهم دائم في الرخاء والشدة.

٢- أن المشركين الأوائل يعبدون أنبياء، أو صالحين، أو أشجارًا، أو أحجارًا تسبح الله تعالىٰ، ولا يعبدون كفارًا ولا فساقًا، وأما المتأخرون فهم يعبدون كفارًا أو فساقًا.

تم والحمد لله التعليق علىٰ القواعد الأربعة، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد.

شرح للقواعد الأربعة
في شريط آخر ودرس جديد

قال الشيخ -حفظه الله-: الحنيفية: هي ملة إبراهيم، وهي أن تعبد الله وحده مخلصًا له العبادة، وهو معنىٰ (لا إله إلا الله)، وقوله: (اعلم)، أي: اجزم وتيقن أن الحنيفية ملة إبراهيم، هي أن تعبد الله مخلصًا له الدين، أي: (مخلصًا له العبادة).

وهذا هو معنىٰ (لا إله إلا الله). فإن معناها: لا معبود بحق إلا الله.

وكلمة التوحيد هي: عبادة الله وحده مع ترك الشرك، وهذا لا يكون إلا بالنفي والإثبات (لا إله) نفي. (إلا الله) إثبات.

فالإثبات: هو عبادة الله تعالىٰ. والنفي: هو البراءة من كل معبود سوىٰ الله؛ وهذا هو الإخلاص.

والإخلاص لا يكون إلا بالكفر بالطاغوت، والإيمان بالله -ﷻ-.

كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وخلق الله الجن والإنس لعبادته، ولا تسمىٰ العبادة عبادة إلا مع التوحيد.

فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وهذا الذي أُرسلت به الرسل، وبُعثت به، وأُنزلت به الكتب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

فاعلم أن العبادة لا تسمىٰ عبادة إلا مع التوحيد.

والتوحيد: هو إخلاص العبادة لله تعالىٰ، وهو إفراد الله بالعبادة، بأن لا يقع في الشرك، فإن وقع في الشرك زال التوحيد، وإذا زال التوحيد فسدت العبادة وبطلت، فالعبادة الصحيحة ما تكون إلا مع التوحيد.

والتوحيد هو: إفراد الله تعالىٰ بالعبادة، كما أن الصلاة لا تسمىٰ صلاة إلا مع الطهارة، فلو صلىٰ بغير طهارة، فلا تسمىٰ صلاة.

قوله: (فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها...).

الشرح

أي: يعلم الإنسان أن الشرك يحبط الأعمال ويبطلها، إذا خالط الشرك العبادة بطلت، كما أن الحدث يبطل الطهارة، والصلاة لا تصح مع الحدث، فكذلك العبادة لا تصح مع الشرك، ويجب علىٰ الإنسان أن يتنبه إلىٰ هذا الأمر العظيم، وأن يعرف الشرك، وذرائعه الموصلة إليه لعله يسلم، لعل الله يخلصه من هذه الشبكة.

والشرك يحبط العبادة قال تعالىٰ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

فإذا كان الشرك هو أعظم الذنوب، وأقبح القبيح، وأظلم الظلم، فمتىٰ لقي الله به، فإن الله لا يغفر له، وصاحبه مخلد في النار، وهذا أمر عظيم.

فإذا عرفت ذلك وجب عليك العناية بذلك، وأن تعرف الشرك وطرقه وذرائعه الموصلة إليه، وأن تدعو الله أن يجنبك الشرك، كما قال الله تعالىٰ عن إبراهيم -عليه السلام-: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

أي: اجعلني في جانب، وهذه الأصنام في جانب، واجعل بيني وبينها مسافة بعيدة.

وكذلك أيضًا الخليل هو الذي كسر الأصنام، وقاطعَ الناس كلهم؛ حتىٰ إنه بقي، وحده أمام هؤلاء الكفار.

وقال الله عنه ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل:١٢٠]، ومع ذلك يخاف الشرك، ويسأل ربه أن يجنبه الشرك.

قال إبراهيم التيمي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: (ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟). المعنىٰ: إذا كان إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- يخاف الشرك، فمن يأمن بعده؟!

قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]. هذا ذنب عظيم لا يغفره الله، ومن لقي الله بالشرك، فإن الله لا يغفر له، وأما من لقيه دون الشرك فهو تحت المشيئة إن شاء الله غفر له بمنه، وفضله، وكرمه، وإن شاء عذبه بمعصيته؛ ولهذا أهل المعاصي دون الشرك وإن طال بقاؤهم في النار؛ يخرجون، ولا يخلد في النار إلا الكفرة، فمن مات علىٰ الشرك فهو خالد في النار.

قول المؤلف: (ذلك بمعرفة أربع قواعد ذكره الله في كتابه).

يعني: تتخلص من هذه الشبكة بمعرفة الأربع قواعد التي تميز بين المشرك والموحد، فإذا كان الشرك لا يغفره الله، وصاحبه مخلد في النار، والجنة عليه حرام، فهذا يوجب علىٰ المسلم العناية بهذا الأمر، وشدة الحذر من هذا الشرك، وهذه القواعد ذكرها الله في كتابه.

شرح القاعد الأولىٰ: أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله، واستحل دماءهم، وأموالهم كانوا يُقرون بتوحيد الربوبية، وأن الله تعالىٰ هو الخالق الرازق المدبر، ومع ذلك استحل دماءهم، وكفَّرهم، وهذا التوحيد يسمىٰ توحيد الربوبية، وهو توحيد الله بأفعاله (توحيد الله بأفعال الرب، وهي: الخَلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، وغيرها من أفعاله سبحانه).

أنت توحد الله بأفعاله، فتقر بأن الله هو الرب، وغيره مربوب، وتقر أن الله هو الخالق، وغيره مخلوق، وتقر أن الله هو المُدبِّر وغيره مُدبَّر، وتقر أن الله هو المالك وغيره مملوك، وأنه المحيي المميت، ومصرف الأمور، ومسبب الأسباب، وهذا يسمىٰ توحيد الربوبية.

وقد أقر به كفار قريش.

والدليل علىٰ إقرارهم بذلك:

١- **قوله تعالىٰ:** ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

٢- **قوله تعالىٰ:** ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٥].

٣- **قوله تعالىٰ:** ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٦ ، ٨٧].

٤- **قوله تعالىٰ:** ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٨ - ٨٩] .

٥- **قوله تعالىٰ:** ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

فكفار قريش في زمن النبي ﷺ مقرون بتوحيد الربوبية، ومع ذلك لم يدخلهم في الإسلام، والسبب أنهم أنكروا توحيد الألوهية، وإخلاص العبادة لله وحده (الدعاء، والذبح، والنذر، وغيرها). أشركوا مع الله غيره، فهم يذبحون لله ويذبحون لغيره، وينذرون لله وينذرون لغيره ويدعون الله، ويدعون غيره وهذا هو الشرك؛ ومع إقرارهم بتوحيد الربوبية كفَّرهم رسول الله ﷺ، وقاتلَهم، واستحل دمائهم وأموالهم.

فالقاعدة: أن الإقرار بتوحيد الربوبية، وهو الإقرار بأن الله تعالىٰ هو الرب الخالق الرازق المالك المدبر، مطلوب، ولكن لا يكفي في الدخول في الإسلام، بل توحد الله بالعبادة؛ حتىٰ تقر بتوحيد الألوهية والعبادة.

وتوحيد الألوهية: هو توحيد الله بأفعالك أنت أيها العبد؛ من دعاء، ونذر، وصلاة، وذبح، وركوع، وغيرها من أنواع العبادة.

فتوحيد الربوبية: هو توحيد الله بأفعاله هو، وتوحيد الألوهية هو توحيد الله بأفعالك أنت أيها العبد، فإذا وحَّدت الله بأفعاله هو ولم توحده بأفعالك أنت؛ لم تدخل في دين الإسلام.

فعليك أن تعلم أن الإقرار بتوحيد الربوبية وحد لا يكفي في الدخول في الإسلام، بدليل أن كفار قريش أقروا بتوحيد الربوبية وقاتلهم رسول الله ﷺ، واستحل دماءهم، وأموالهم.

شرح القاعدة الثانية: يقول كفار قريش: (ما دعوناهم إلا لطلب القربة)، أي: ما دعونا الأصنام والأشجار إلا لطلب القربة، والشفاعة. وكفار قريش في عهد النبي ﷺ يعبدون أنواعًا من المخلوقات والمعبودات، منها: الشمس والقمر، ومنها: الملائكة، والأشجار والأحجار، وغيرها. يدعونهم وينذرون لهم، ويتوجهون إليهم يقصد طلب القربة من الله والشفاعة.

ودليل ذلك: قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] . أي: قائلين: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلىٰ الله زلفىٰ.

فحكم الله عليهم بحكمين:

١- أنهم كذبة في قولهم؛ أنها تقربهم إلىٰ الله، بل إنها تُبعِدُهم عن الله.

٢- أنهم كفار بهذا العمل؛ حينما يدعون الأولياء، ويذبحون للأصنام، أو الأشجار، أو الشمس، وينذرون لها، فهذا هو الشرك الأكبر؛ ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وحكم من دعا غير الله، أو تقرَّب، أو نذر لغير الله، أو ركع لغير الله، حكمه كافر بنص القرآن حتىٰ لو اعتقد أنها لا تنفع ولا تضر.

ودليل دعواهم أنها تشفع قوله تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. فهم يثبتون الشفاعة والقربة، ولكن هذا العمل كفَّرهم الله به، وكذبهم.

والشفاعة نوعان: شفاعة منفية. وشفاعة مثبتة.

١- الشفاعة المنفية: هي التي تُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ كأن يطلب الشفاعة من الأصنام، والأحجار، فهذه شفاعة باطلة؛ لأنه لا يقدر عليها إلا الله -ﷻ-، ولا تقدر الأحجار والأشجار أن تشفع عند الله كما قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

والدليل علىٰ الشفاعة المنفية قوله تعالىٰ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]. الظالم الكافر ليس له شفيع.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

فمن مات علىٰ الكفر فلا شفاعة له؛ إنما الشفاعة لأهل التوحيد.

الشفاعة المثبتة لها شرطان:

١- إذن الله للشافع أن يشفع: والله لا يأذن لأحد أن يشفع في أهل الفسق والشرك.

٢- رضا الله عن المشفوع له: والله لا يرضىٰ عن المشركين؛ فبطل الشفاعة التي يطلبها المشركون في آلهتهم. فإذا قال: يا رسول الله اشفع لي -بعد موته- فهذا هو الشرك؛ فإنه لا يقدر عليه إلا الله، ولأنه دعا غير الله، ولأن الرسول ﷺ ميت لا يشفع إلا في يوم القيامة.

الشفاعة المثبتة: هي التي تُطلب من الله، مثل قول: يا رب شَفِّع فيَّ نبيك، يا رب شفع إفراطي.

فالشافع مكرم بالشفاعة، فالله يكرم الشافع بـالإذن له، وإلا فالفضل يعود لله سبحانه.

والشفاعة تكون لمن رضي الله قوله وعمله وهو الموحد. أما المشرك فلا يرضىٰ الله قوله وعمله كما قال تعالىٰ: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦].

وهذه الآية فيها الشرطان إِذْن الله للشافع أن يشفع، ورضاه عن المشفوع له.

شرح القاعدة الثالثة: أن النبي ﷺ بعثه الله في أناس متفرقين في عباداتهم؛ منهم: من يعبد الأصنام، أو الأشجار، أو الأحجار، أو الشمس، أو القمر، ومنهم: من يعبد الأنبياء أو الأولياء، أو الصالحين، فكفَّرهم رسول الله ﷺ، واستحل دماءهم، وأموالهم، وقاتلهم كما قال تعالىٰ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

والفتنة هي الشرك، أي: لا يكون شرك، ولم يفرق بينهم، فمن يعبد الأحجار، أو الأشجار، أو الشمس، أو القمر، أو الصالحين، أو الملائكة، كلهم مشركون وكلهم يقاتَلون، وكلهم علىٰ باطل.

واستدل المؤلف علىٰ هذه الأنواع:

١- دليل النهي عن عبادتهم الشمس، والقمر قوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧].

٢- دليل النهي عن عبادة الملائكة قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۚ ﴾ [آل عمران: ٨٠].

٣- دليل عبادة الأنبياء قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ ﴾ [المائدة: ١١٦].

٤- دليل عبادة الصالحين قوله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ ﴾ [الإسراء: ٥٧].

يدعون من دون الله هم يطلبون الوسيلة، وهي التقرب إلىٰ الله بالطاعة، أي: هؤلاء

الصالحون الذين يدعونهم هم يطلبون القربة إلى الله بطاعته؛ فكيف يعبدونهم وهم يعبدون الله، ويطلبون القربة؟!

٥- دليل الأشجار والأحجار قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠].

وهي الأصنام الكبار عند العرب:

١- اللات: صنم لأهل الطائف (ثقيف) ومن حولهم، وهي صخرة، وقيل: هو اسم رجل يلتّ السويق للحاج، بالتشديد الرجل الذي يلت السويق، واللات بالتخفيف: الصخرة.

٢- العزى: شجرة في نخلة بالوادي.

٣- مناة: بنية بقديد.

٤- هبل: صنم كبير.

ولكل قبيلة صنم، لكل أهل صنم.

ثم ذكر حديث أبي واقد الليثي عندما ساروا مع النبي ﷺ بعد فتح مكة إلى حُنين، وهم حدثاء عهد بالشرك، ما استقر التوحيد والإيمان في القلوب، فمروا بسدرة يعكفون عندها، ويعلقون عليها أسلحتهم، وطلبوا من النبي ﷺ مثل هذه الشجرة؛ فقال الرسول ﷺ: «الله أكبر!!» وجعل مقالتهم مثل مقالة اليهود لموسى حينما طلبوا أن يجعل لهم إلهًا، وهم أسلموا حديثًا، طلبوا منه أن يجعل لهم سدرة، فجعل الرسول ﷺ هذه المقالة مثل مقالتهم؛ لأن العبرة بالمعاني والمقاصد لا بالألفاظ، وإن جاروا.

والقاعدة أنه لا فرق بين المعبودات، وأن من عبد غير الله تعالى فهو مشرك أيًّا كان معبوده شجر، حجر، أو ملك، أو نبي أو غيرهم، وهؤلاء المشركون لم يفرق بينهم الرسول ﷺ واستحل دماءهم وأموالهم.

وفي هذه القاعدة الرد على عُبَّاد القبور: الذين يدعون الأموات من دون الله، وينذرون لهم ويقولون: نحن لا نشرك بالله، نحن نشهد أن لا إله إلا الله، ونصلي، ونحج، ونزكي.

والرد عليهم: بأنه ليس كل المشركين يعبدون الأوثان بل بعضهم يعبد الملائكة، وبعضهم يعبد الصالحين، وبعضهم يعبد الشمس والقمر، ولم يفرق بينهم رسول الله ﷺ، واستحل دماءهم.

وفيها بيان أنه لا فرق بين المعبودات، وأن من عبد غير الله فهو مشرك، وأن الدعاء عبادة، والذبح عبادة، فإذا ذبحت لهؤلاء الأموات فقد انتقضت شهادة أن لا إله إلا الله، ويُبطل الصوم، والصلاة، والحج، وجميع الأعمال.

ومثال ذلك: من توضأ فأحسن الوضوء، وَتَطَّهر ثم أحسن الطهارة، ثم نقض الوضوء وأحدث، بطلت الصلاة والعبادة، وهم يدعون الأموات يا حسين، أعني! ويا هبل! يا عبد الصالح أغثني! وخذ بيدي.

فبطلت العبادة، والشهادتان، وفسدت الصلاة، والصوم، والحج، وجميع الأعمال، وانتقل من كونه مسلمًا إلى كونه مشركًا.

وهذه الشبهة يوردها عباد القبور يقولون: نحن نصلي ونصوم، ولا نشرك بالله، فكيف تجعلونا مثلهم؟!

نقول: أهل الأوثان في زمن النبي ﷺ عباداتهم متنوعة، منهم من يعبد الأنبياء، والصالحين، وغيرهم، والجميع كفَّرهم رسول الله ﷺ، واستحل دماءهم.

شرح القاعدة الرابعة: بيان الفرق بين المشركين الأولين والمتأخرين، وأن المشركين الأولين أخف شركاً، والمشركون المتأخرون أغلظ وأشد شركاً مع أنهم كلهم مشركون، ولكن الشرك يتفاوت كما أن الكفر يتفاوت، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

فالمشركون الأوائل: يشركون في وقت، ويوحدون في وقت؛ إذا كان في الرخاء أشركوا، وإذا جاءت الشدة وتلاطمت الأمواج؛ ذكروا الله فأخلصوا له العبادة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. والدين هو العبادة.

وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧].

ولابد من التوحيد في كل حال، ولابد من التوبة من الشرك، والندم، والإقلاع، أما إذا كان يوحد في وقت ويشرك في وقت فإنه لا يكون موحدًا.

من ضبط هذه القواعد الأربعة تبين له الشرك من التوحيد.

(الخلاصة للقواعد الأربعة)

القاعدة الأولى: بيان أن المشركين يوحدون الله بأفعاله، وربوبيته، ولكن لم يوحدوا الله تعالى بأفعالهم فكفَّرهم الله تعالى.

القاعدة الثانية: أن المشركين حينما عبدوا الأصنام، والأشجار، أو الملائكة، أو الصالحين، مقصدهم القربة والشفاعة لا يعتقدون أنهم يخلقون، أو يرزقون؛ بل مقصدهم أنهم وجهاء عند الله؛ فهي تقربهم وتشفع لهم عند الله كما أخبر الله عنهم بقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا﴾ [يونس: ١٨].

وهذا القصد الذي قصدوه هو الشرك بعينه جعله الله شركًا أكبر، وهذه مقاصد أهل الشرك ممن يدعون أهل القبور من المتأخرين، وهي مقالة المشركين الأولين.

القاعدة الثالثة: أن المعبودات مهما تنوعت واختلفت، فحكمها واحد، ويعمها اسم واحد وهو أنها كلها باطلة، وكل مَن عَبَد غير الله من المخلوقات فهو مشرك.

القاعدة الرابعة: أن المشركين المتأخرين أغلظ، وأشد وأقبح شركًا من الأولين (المتقدمين)؛ لأن المتقدمين يشركون في وقت، ويوحدون في وقت، ويعبدون أنبياء وصالحين، وأحجارًا وأشجارًا، تسبح الله، والمتأخرون يشركون في جميع الأوقات، والمتأخرون زادوا عليهم في عبادة الأصنام، والأحجار فعبدوا كفارًا وفساقًا.

تم بحمد الله الانتهاء من شرح القواعد الأربعة.